استراتيجيات مواجهة الغزو الرقمي للطفل

د.عبد الكريم قريشي/د. رمضان زعطوط

– قسم علم النفس– جامعة ورقلة

ملخص:

إن الهـــوة الفاصلة بين الوليد وبين ابن الخامسة تشبه خندقا واسعا أما بين هذا الأخير وببني فهي حصوة لا غـــير، إن هـــذه الملاحظة الذكية من تولستوي تشير إلى ما ذهب إليه علماء نفس الطفل في احتفائهم بمراحل النمو الباكر ودورها في حياة البشر، لذلك يزداد عبء التربية بمرور العصور وتراكم المعرفة، خاصة في مواجهة سيل الصور الرقمية المتسللة إلى دماغ الناشئة.

إن تجـــربة المشـــاهدة التلفزيونية قد حظيت بالدراسة والبحث غير أن استراتيجيات مواجهة آثارها بقيت تراوح بين رافض متخوف من الغزو المعلوماتي غير المكيف مع قدرات الطفل المعرفية وبين متفائل بمستقبل جيل الكتروني مبدع.

نحـــاول في هـــذه المداخلـــة وضع القدم في منطقة الوسط من خلال مراجعة لأدب البحث في هذا الميدان مركزة على معطيات علم النفس العصبي في مجال التربوي.

كلمات مفتاحية: الطفل، المشاهدة التلفزيونية، النمو المعرفي، استراتيجيات التعامل.

مقدمة:

يعتبر التلفزيون أحد أهم وسائل الإعـــلام في عصرنا، متفوقا على الحـــاسوب والإنترنت سواء من حيث كمـــية المشاهدة أو نوعية البرامج، ولا يكاد يخلو منه بيت في الحضر أو المدر، كما أصبح وسيلة تعليمية سواء قـــبل المدرســـة أو داخـــل المؤسســـات التربوية الحديثة وإن تفوق عليه الحاسوب في مجال التعلم التفاعلي interactive learning وإذا كنا نعيش 150 ألف ساعة منذ الميلاد وحتى سن 18 سنة، فإننا ننام منها 50 ألف ساعة، ونحلم لمدة ساعتين من كل ثمان ساعات نوم في كل ليلة، كما نقضي 65 ألف ساعة من بين 100 ألف ســـاعة الباقـــية في الـــيقظة، من خلال نشاطنا اليومي الفردي أو الاجتماعي مما يساعدنا في تكوين ذاكرتنا الشخصـــية وتســـهيل سلوكنا الاجتماعي، أما 25 ألف ساعة الباقية لنشاطاتنا الفكرية والثقافية، فتتوزع بين المدرســـة (12 ألـــف ســـاعة)، وبين وسائل الإعلام المختلفة(التلفزيون والحاسوب، والقراءة الترفيهية)أو في نشـــاطات أخرى مثل الرياضة ودور العبادة أو المراكز الثقافية العامة (23 ألف ساعة)، مع فـــروق فرديـــة وثقافية بين الأطفال والمراهقين(Sylwester 2000).

وهكـــذا فـــإن الفرد البشري في فترة النمو والنضج (1-18 سنة)، يقضي 8 ساعات يومية في النوم، و10 ســـاعات في نشاط اليقظة مع ذاته أو عائلته أو أصدقائه، و4 ساعات مع وسائل الإعلام، وساعتين (02) فقط في المدرســـة، ولا شـــك أن الوسيلة التي تستحوذ على اهتمام الطفل خاصة في مجتمعاتنا العربية هي التلفزيون (عقل 2004).

وبغـــض الـــنظر عن المحتوى وطريقة استعمال التلفزيون فإن تجربة المشاهـــدة Viewing experience في ذاتهـــا تـــبدو ذات أثر كبير في مراحل النمو الباكر. قد يبدو غريبا تساؤلنا في عصر الانترنت والغزو الرقمي، وحضـــارة الصورة، عن أثر التلفزيون على الكائن البشري النامي الحساس، المنشغل بهذه التجربة الفريدة (وين 1999). غـــير أن هذا التساؤل يفرضه المنهج العلمي في دراسة مراحل الطفولة، كما يصورها علم النفس النمو Development psychology، أو كمـــا يشـــير إليها علم نفس الإعـــلام Psychomediaوهو علم ناشيء خصـــته الجمعـــية الأمريكـــية لعلم النفس بالفرع 46، ويجعل من اهتماماته الرئيسة العوامل النفسية المصاحبة لاســـتعمال وســـائل الإعـــلام والتفاعل القائم بين الفرد وبين هـــذه الوسائل ومدى تأثيرها على شخصينه وآدائـــه النفسي والاجتماعي، وعليه فمن المشروع أن نتساءل عن هذه التجربة التفاعلية على الطفل في مراحل نموه المختلفة:

1- ما هي آثارها على المستوى الجسدي والنفسي ؟

2- ما هي آثارها على السلوك الاجتماعي والتكيفي للطفل ؟

3- كـــيف تـــتداخل مع الحياة الأسرية ؟ وكيف تؤثر في مهارات الطفل المعرفية محددة مستقبله التعليمي والتربوي ؟

2- آثار المشاهدة التلفزيونية على الطفل :

تؤثـــر هـــذه المشاهـــدة على صحة الطفل الجسدية من جوانب عديدة مثل نمـــو الدماغ ونضجه وعلى جهازه العضلي والعظمي وعلى نشاطه الطبيعي كاللعب والرياضة أو سلوكه الغذائي حيث يعتبر البقاء لفترات طويلـــة أمـــام التلفزيون من أهم أسباب ارتفاع نسبة السمنة لدى الأطفال خاصة في الدول الصناعية، وتتأثر بعض الأجهزة العضوية مثل العينين والقلب بدرجة خاصة، كما قد تظهر اضطرابات جسدية مثل تنادر الطفل المتعب (جميل عطية، 2000).

أمـــا الآثـــار النفسية والاجتماعية مثل السلوك العدواني، وتقليد السلوكات المرضية مثل التدخين أو إدمان المخـــدرات، أو الانحـــراف الجنسي وكذا اضطراب الهوية الجنسية والدور الاجتماعي، إضافة إلى نتائج الإثارة الانفعالية المزمنة، فقد اجمعت الدراسات على علاقتها بالإفراط في المشاهدة التلفزيونية في فترات النمو الباكر.

إن أغلب هذه الدراسات (Doublday، 2001) تناولت هذه الآثار مركزة على محتوى البرامج التلفزيونية، كمـــا ربطتها بالعملية التعليمية والتربوية، مثل البرنامج الشهير "شارع السمسم" Sesame street ، أو نسخته المعدلـــة عربـــيا "افتح يا سمسم"، لكنها دون الأصل بكثير،و تركز على أثر تجربة المشاهدة ذاتها على النمو

النفسي العصبي Neuropsychologic أو المهارات المعرفية Cognitive Skills للطفل، وتأثر فيزيولوجية الدماغ وانتباهه إلى درجة الذهول كما يحدث لدى مشاهدة الرسوم المتحركة (Noel، 2003).

غير أن مراجعة أدب البحث في هذا الموضوع في العقدين الأخيرين من القرن العشرين يؤكد أن المكلفين برعاية الطفل من ميلاده إلى سنوات المراهقة والبلوغ، سواء كانوا أطباء أو أخصائيين نفسيين أو مربين وعلماء الاجتماع، وعلماء الأعصاب، وكذا الإعلاميين، أشاروا إلى أهمية دراسة آثار هذه المشاهدة على المهارات المعرفية وتداخلها مع عمليتي التعليم والتربية وفرقوا أساسا بين استعمال التلفزيون كوسيلة إعلام وبين تجربة المشاهدة في علاقتها بالطفل وكذا دور الطفل في هذه العملية، حيث ترى Thurston وزملاؤها (1992) أن الطفل يحمل معه مهاراته المعرفية المرتبطة بعمره ومراحل نموه وإمكاناته الوراثية وتفاعله مع والديه والمؤسسات الاجتماعية الأخرى مثل المدرسة ويمكن تلخيص العوامل المؤثرة على استخدام الطفل للتلفزيون في الشكل التالي:

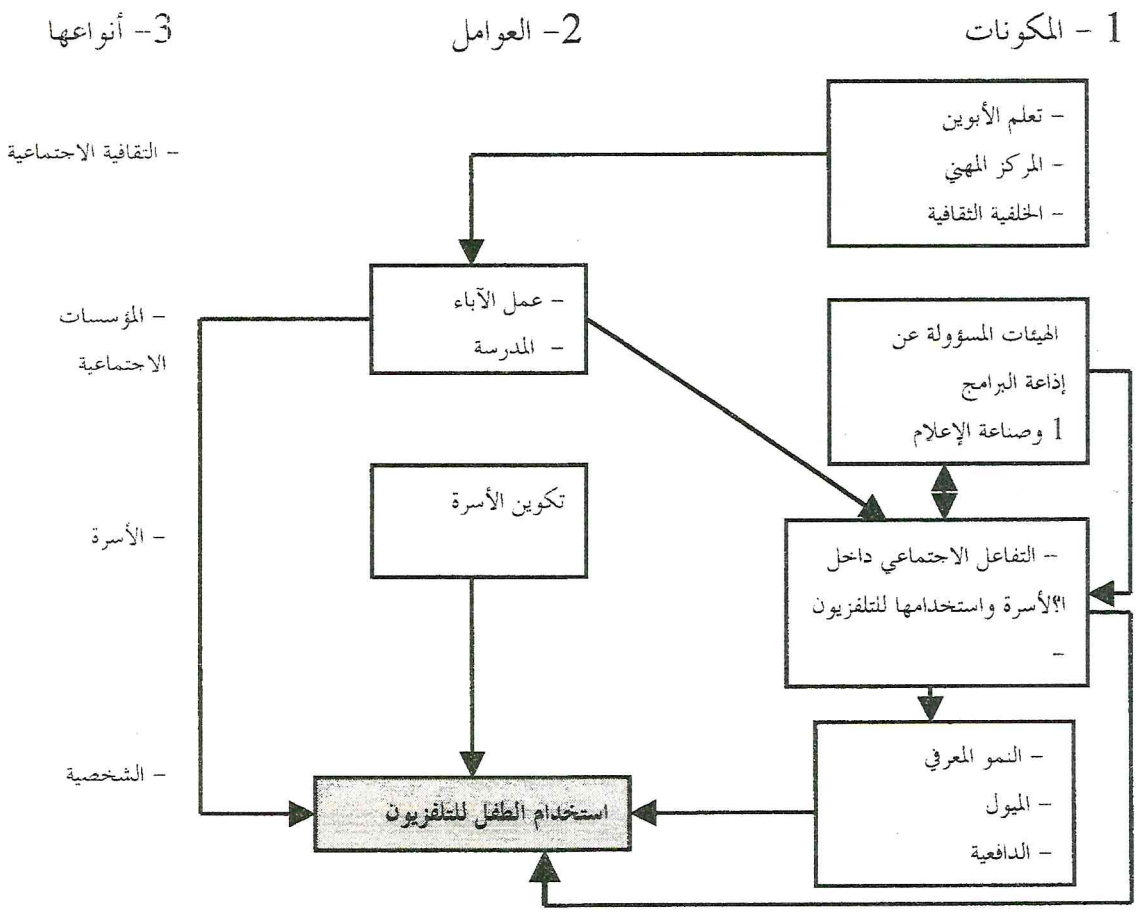

شكل 1: العوامل المؤثرة على استخدام الطفل للتلفزيون (جميل عطية، ص 69)

و يتضح من الشكل السابق أن أثر المشاهدة التلفزيونية على الطفل ترتبط بهذه العوامل حسب سياق المشاهدة، وإمكانيات الطفل النفسية والجسدية والاجتماعية.

3- الآثار المعرفية للمشاهدة التلفزيونية:

إن مراجعة الدراسات التي سنوردها تعكس حقيقة هامة هي أن النشاط المعرفي للطفل أثناء مشاهدته لوسائل الإعلام يعكس مراحل نموه المعرفي كما حددها علماء النمو، وخاصة تلك التي تصورها بياجيه Piaget وتؤكدها Kubey (1994)، من خلال دراسة عرضت قصة خيالية على شاشة التلفزيون على ثلاث مجموعات من الأطفال (4 سنوات و8 سنوات و10 سنوات) ثم أعطي كل طفل صورا مأخوذة من مشاهد القصة وطلب منه ترتيبها حسب تسلسل القصة كما رآها على التلفزيون، حيث بينت النتائج أن أطفال 4 سنوات عجزوا في أغلبهم في أداء المهمة، أما الذين تجاوزوا سن السابعة فقد رتبوها بطريقة صحيحة مما يعكس الفروق في النمو المعرفي حسب العمر الزمني،ويشير جميل عطية (2000) إلى أن مشاهدة التلفزيون خاصة في سن ما قبل المدرسة Preschoolers (4-5 سنوات)، لها خصائص معينة أهمها:

1- ميل الأطفال إلى الاستمتاع بتكرار المشاهدة، وعدم الإحساس بالملل.

2- رغم خيال الطفل الواسع، إلا أن المشاهد الغريبة تثير دهشته مثل غياب العلاقة بين السبب والنتيجة في أفلام الرسوم المتحركة، كأن ينفجر جسم الحيوان ثم يعود إلى الحياة فورا، أو الحيوانات الناطقة مقارنة بالحيوانات العجماء في بيئته الواقعية.

3- يتذكر الأطفال في هذا السن قليلا مما يرونه، ويعتبر استدعاء المشاهد دالة للزمن.

4- يجدون صعوبة في فهم اللقطات والمناظر (الخيال، الواقع)، ويلعب زمن الحادث دورا مهما في ذلك.

5- لا يختلف إدراك الطفل في المرحلة ما قبل المنطقية (الحسحركية، ما قبل العمليات) لما يشاهده على الشاشة مقارنة بإدراكه لبيئته المحيطة.

ويجدر التذكير بتصنيف بياجيه لمراحل النمو المعرفي لدى الطفل وذلك قبل التطرق لبعض الآثار المترتبة عن المشاهدة.

المرحلة		العمر	خصائصها
المرحلة قبل منطقية	المرحلة الحسحركية	2-0	يتعامل مع المؤثرات الحسية الحركية يعرض عمليات ما قبل التمثيل والما قبل لفظي.
	ما قبل العمليات	7-2	قادر على تمثيل العمل، والحركة مربوطة بعملية التفكير واللغة غير مرتبطة بالمنطق
المراحل المنطقية	مرحلة العمليات المادية	11-7	تفكير منطقي، ولكن الحقيقة مرتبطة بالأشياء المادية
	المرحلة المجردة	15-11	تفكير منطقي، مجرد وغير محدود.

تصنيف بياجية لمراحل النمو المعرفي لدى الطفل (يوسف قطامي،ص 94)

إن التساؤل عن أثر التلفزيون على هذه المراحل والوظائف المعرفية سببه الرئيسي بعض الدراسات التي ربطت بين تدني المهارات التعليمية والتربوية وكذا تدني الأداء المعرفي للأجيال التي نمت وترعرعت في عصر التلفزيون أي منذ الثمانينيات إلى الآن (Noel، 2003)، ثم الدراسات التي اهتمت بالسلوك العدواني لدى الأطفال خاصة بعد الحوادث المؤسفة التي تورط فيها أطفال بقتل زملائهم

ومدرسيهم، والانحراف الجنسي المبكر خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية(Huston، 1992) وظهور اضطرابات نفسية وجسدية مرتبطة بالمشاهدة التلفزيونية مثل المخاوف وتناذر معنى العالم Mean World syndrome كما وصفه Gerbner (1992)، إضافة إلى كتابات بعض الباحثين في هذا الميدان (Susan 1994، Kelemen 2000، Healy 1998، وين 1999،Sylwester،1997) والتي أكدت الآثار السلبية للمشاهدة الطويلة على نمو الدماغ والمهارات المعرفية مثل التفكير والذاكرة والانتباه، والقدرة على الفهم والتعلم، وكذا المحتوى التخيلي للطفل صورة وكلمة.وما يتفرع على ذلك مثل الآثار المتعلقة بالعملية التربوية وعلى مهارات التعلم

الأساسية كالقراءة والكتابة والتعبير أوالمقدرة الرياضية، حيث أكد فريق البحث في جامعة Brown أن للتلفزيون أثراً سيئاً على فيزيولوجية النوم لدى الأطفال، وأن هناك ارتباطًا دالا بين مدى المشاهدة النهارية لديه (Lowrence، 1999)، كما يؤكد هيلي (1998) أن بعض الاضطرابات النفسية مثل تناذر نقص الانتباه attention deficit disorders بدأ في الظهور لدى الأطفال بشكل وبائي تماماً مثل تدني الأداء التعليمي وصعوبات القراءة والفهم، وأن للمشاهدة التلفزيونية المفرطة دخل في ذلك ويعود ذلك أساساً إلى طبيعة المنبه التلفزيوني المعتمدة على الصورة السريعة المتعددة الألوان لشد انتباه الطفل دون احترام لإيقاعات الدماغ الفزيولوجية.

يستعمل دماغنا طريقتين لتحليل المنبهات البيئية والاستجابة لها (Sylwester،1997)، ويقوم المشرفون على البرامج الإعلامية بإستغلالها في التأثير على المشاهدين. تعتبر الطريقة الأولى تحليلية، بطيئة يشارك فيها المهاد thalamus، وحصان البحرhippocampus وقشرة الدماغ cortex،وتركز على المعطيات الموضوعية في البيئة المحيطة مقارنة إياها بما تختزنه الذاكرة، وتسعفنا هذه الآليات في المواقف التي لا تحتاج إلى استجابات تحد سريعة. وأما الطريقة الثانية فيشارك فيها المهاد، واللوزة amygdala والمخيخcerebellum، وهي سريعة، انعكاسية، ترتكز على عوامل الإنقاذ السريعة في الموقف، وتعتمد على الاستجابات الذاتية في مواقف الخطر والخوف الشديد مما يؤدي إلى سلوكات غريزية آنية.

إن آليات الصورة والصوت في التلفزيون ترتكز على الطريقة الأخيرة مستغلة مواقف الخطر والخوف والمشاهد العنيفة والمنبهات الجنسية لاستدعاء ردود فعل سريعة وغير ناضجة لشد انتباه الطفل، حيث تكون الخطورة مضاعفة لأن هذا الأخير يدرج هذه المدخلات ضمن عالمه الواقعي كجزء لا يتجزأ منه.وهو ما يؤكده Smith(2004) خاصة في التلفزيون التجاري حيث أن تعاقب المثيرات البصرية خاصة في لقطات الإشهار يؤدي إلى اضطراب نظم ألفا alpha rythm للدماغ بسبب النشاط المفرط للفص القفوي المتخصص في تحليل المنبهات البصرية مما يؤدي إلى إجهاد الدماغ.

ولتوضيح العلاقة بين تجربة المشاهدة وبين الأداء النفسي العصي لدماغ الطفل، سنركز لاحقاً على مهارات الانتباه والفهم وإدراك الواقع، كما سنعرض لأهم الدراسات التي تناولت تأثير العنف المشاهد على دماغ الطفل.

4- التلفزيون والانتباه لدى الطفل

تؤكد دراسة Kristin وزملاؤه (2001) طبيعة الانتباه ووظيفته من خلال المشاهدة كما ظهرت أيضا في دراسات Anderson و Lorch (1983)حيث تبدو كعملية نشطة وليست استجابة منفعلة reactive وسلبية. وفي دراسة Reeves و Meedowcraft (1989) على مجموعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين 5 - 8 سنوات وبالاعتماد على نظرية الخطاطة Schéma theory،كما تظهر في إعادة رواية القصص المشاهدةحيث يتضح أن الأطفال قبل سن السابعة تعوزهم مهارات الحبك القصصي وعدم القدرة على تركيز الانتباه على محور

مفاهيمي أو قصصي معين. أما دراسات Anderson وزملاؤه (Alwitt وChoi، 1987) فتشير إلى ظاهرة هامة هـــي كسل الانتباه Attention inertia، مما يدعو الطفل إلى عدم التركيز أو صرف الانتباه عن المشاهدة. لقد لوحـــظ أن أطفـــال 3 – 5 ســـنوات لا توجد لديهم فروق في هذه الظاهرة حسب العمر، فكلما كانت مدة المشـــاهدة أطـــول كلما زاد الطفل انتباها إلى ما يشاهده.إن جاذبية الشاشة تتزايد لدى الطفل من الميلاد إلى الخامســـة (0 – 5 ســـنوات) ثم تســـتقر في سن المدرسة حتى العاشرة، ثم تتناقص بعد ذلك لتصل إلى مستوى الراشد في سنوات المراهقة والبلوغ.

وتشير دراسات Huston وWright وRolandelli (1991) إلى تفوق المثيرات البصرية على المثيرات الصوتية في شد انتباه الطفل المشاهد، غير أن أسلوب القصة يتفوق باستعمال الطريقة السمعية البصرية خاصة إذا كانت مواضـــيع القصـــة وأسلوبها أقرب إلى عالم الطفل ومشحونة عاطفياً، كما أن هناك فروق جنسية بين الإناث والذكـــور، ففي حين يفضل الذكور المثيرات البصرية، تنجذب الإناث إلى المنبهات الصوتية، ويميل الذكور إلى مشاهدة العنف أكثر من الإناث خاصة في سن السابعة(Huston،Kirkman، 1988).

5– هل يفهم الطفل ما يشاهده؟

يؤكـــد الباحثون على أن فهم الطفل لما يشاهده يزداد مع العمر، فالأطفال ما قبل سن الثامنة لا يتذكرون جيداً ما شاهدوه وسمعوه، وبغض النظر عن مناسبة محتوى البرنامج لسن الطفل، وسواء كان تعليمياً أو ترفيهياً أو مخصصـــاً للراشدين (وين، 1999). ويعود ذلك أساساً إلى عدم مقدرة دماغ الطفل في هذه السن الباكر على الاحـــتفاظ بالمثيرات السريعة والمتراكمة وتمثلها وتفسيرها حسب العمليات المعرفية الأساسية في نموذج بياجيه لعدم اكتمال البناءات المعرفية Cognitive structures، ثم تزداد هذه المقدرة بعد سن الثامنة إلى الرابعة عشرة، ففـــي حين يتذكر أطفال ما قبل المدرسة ما يشاهدونه على شكل حوادث منعزلة غير مركزين على اللقطات ذاتها، فإن أطفال السابعة وما بعدها يستطيعون التركيز على اللقطات دون تقطع غير أن هناك عوامل متشابكة تتداخل مع مقدرة الطفل على فهم ما يشاهده مثل طبيعة البرامج، وصعوبتها، ومدى ملاءمتها لقدرات الطفل، وخلفية المشاهدة وسياقها، إضافة إلى العوامل النفسية والجسدية والاجتماعية كما أشرنا إليها في الشكل1.

كمـــا تؤثـــر طبيعة التفكير ونموه لدى الطفل على عملية الفهم، حيث تمدنا معطيات علم النفس العصبي neuropsychology بإشـــارات هامة إلى مرحلتي التفكير اللفظي وغير اللفظي ودورهما في عملية الأداء المعرفي للطفـــل.إن معظـــم أنشطة الدماغ اللفظية (اللغوية) والمنطقية (التحليلية)، لدى الراشد يديرها نصف الدماغ الأيســـر، في حـــين يســـيطر النصف الأيمن من الدماغ على النشاطات المكانية والبصرية والوجدانية، وهو ما يـــنعكس على الذاكرة حيث نملك ذاكرة صورية وأخرى لفظية لهما أثر واضح في عمليتي التعلم والتدريب (Habib،1993). غـــير أن هذا التخصص الوظيفي لا يظهر جلياً لدى الأطفال، حيث تتحدد السيطرة الدماغية عـــبر مراحل النمو المتعاقبة وتكتمل في مراحل النضج قرب المراهقة والبلوغ، كما لا يمكن الجزم بالطريقة التي يعمل بها دماغ الطفل حين يفكر (وين، 1999)، وفيما إذا كان تفكيره لفظياً أو غير لفظي قبل أن يتعلم الكلام.

فحين يبدأ الطفل في اكتساب اللغة (السنة الثانية من العمر) تكون مهارات نصفي الدماغ متقاربة، حيث أن أي تلـــف يصيب نصف الكرة الدماغية الأيسر لدى الطفل في هذه السن لا يزيد ضرره عن تلف مماثل في النصـــف الأيمن، لكن الضرر الذي يصيب مناطق اللغو بعد السنة الرابعة من العمر وبعد اكتساب اللغة يكون مؤذيـــاً، وهو ما يشير إلى أهمية التفكير اللفظي لدى الطفل في مراحل التطور المعرفي التالية، ويتداخل مع عملية فهمـــه لمـــا يشـــاهده. ذلك أن تجربة المشاهدة غير لفظية أساساً حيث يصاب التفكير خلالها بنوع من التنويم الســـلبي، تغيب فيه تجربة اللغة المنطوقة من طرف الطفل وتتحول إلى تجربة صورية إلى لغة مسموعة، مما أدى ببعض الباحثين (Collins، Dorr،Welman 1982)، إلى التأكيد على أن فهم الطفل يتأثربهذه الطريقة الإيحائية التي لا تستدعي عمليات فكرية معقدة لفهم المحتوى، منبهين على دور اللغة في التفكير، وخطر التلفزيون أساساً عـــلى هذه المهارة المحددة للأداء التعليمي والتربوي، مركزين على أثر المشاهدة على فترات النمو الحرجة أو ما يدعى بالنوافذ العمرية windows of opportunity وأهمها:

الأبصار (0 – 6 أشهر)، التطور العاطفي (0 – 18 شهراً)، الثروة اللغوية والكلام (0 – 3 سنوات)، المهـــارات اللغويـــة (0 – 5 سنوات)، المنطق والرياضيات (1 – 4 سنوات) ويؤدي تعرض الطفل لمثيرات مشوشـــة، أو حرمانه من فرصة تطوير هذه المهارات حسب العمر الزمني والمعرفي إلى نتائج غير محمودة (جميل عطية، 2000).

6- إدراك الطفل بين الواقع والخيال:

مـــنذ صـــدر كتاب Grant Noble (1975) *الأطفال في مواجهة الشاشة الصغيرة*، والذي ربط بين إدراك الطفـــل لحقيقة ما يشاهده وبين مراحل النمو المعرفي، فإن دراسات كثيرة حاولت التأكد من هذا الارتباط مثل دراسة Brown (1979) الارتباطية على عينة من 64 طفلاً تراوحت أعمارهم ما بين 6 – 7 سنوات، ووجدت ارتـــباطاً دالاً بـــين إدراك الطفل لحقيقة ما يشاهده وواقعيته وبين مراحل نموه المعرفي، حيث تفوق المحتفظون conservers على غير المحتفظين non-conservers على مقياس إدراك الواقع perceived reality scale.

كما أظهرت دراسات، Flavell وTaylor(1986) أن أطفال ما قبل المدرسة (3-4 سنوات) يجدون صعوبة في تمييـــز حقيقة ما يشاهدونه في حين يسهل على أطفال المدرسة ذلك، وأما حين يتجاوز الطفل 11 سنة من العمـــر فإنـــه يظهر مهارات متفوقة في التمييز بين الواقع والخيال (Chaudle،2002). وفي دراسات Flavell التجريبية، تم التأكد من ارتباط هذه القدرة بمهارة بقاء الشيء وغيابه لدى الطفل Recognition of absence، حيث استكشف ما إذا كان طفل 3-4 سنوات يتصور أن ما يشاهده على التلفزيون هي أشياء فيزيائية حقيقية تقبع داخل الشاشة، أم مجرد صور لها.

وفي دراســـات Gardner،Jaglon وHoward (1981)، على أطفال الثالثة من العمر تم استكشاف إمكانية الطفـــل عـــلى وضـــع حدود بارزة بين عالمه الواقعي وما يشاهده، أو ما إذا كان يتصور أنه يؤثر في مجريات

الأحـــداث المشاهدة،فكلما انخفض عمر الطفل تلاشت الحدود بين الواقع والخيال، وبين عالمه الترويي الأقرب إلى المرحلة الحسية الحركية، وبين العوالم المعاشة في التجربة التلفزيونية.

7- الطفل ومشاهد العنف:

تشـــير الدراسات التي تمت خلال العقود الثلاثة الماضية(Paik 1973 Hearold 1986 Murray 2000) إلى الآثار السلبية للمشاهد العنيفة على نمو الطفل وذلك حسب ثلاث مستويات من السلوك:

1- سلوك العنف: فكلما ازدادت هذه المشاهد ازداد السلوك العدواني للطفل.

2- ســـلوك إزالة التحسس: يزداد تقبل الطفل للسلوك العدواني في محيطه الاجتماعي ويتناقص الامتعاض منه تدريجياً.

3- الخوف: يزداد شعور الطفل بأن العالم مليء بالمخاوف والأخطار.

تعتبر هذه السلوكات متعلمة استناداً إلى نظرية التعلم الاجتماعي لـــ Bandura والتي ترتكز على ملاحظة الـــنماذج في بيـــئة الطفـــل وتقلـــيدها (Murray 2001). كمـــا تؤكد نظرية التحليل الارتباطي المعرفي لـــ Berkowitz عـــلى أهمـــية الإثـــارة الانفعالية في السلوك المتعلم، حيث تعتمد مشاهد العنف على هذه التقنية لإحداث الأثر المرغوب في المشاهد وحبس أنفاسه رعباً وخوفاً.

يؤكـــد كـــل مـــن Damasio(1999) وLe Doux (1994)، عـــلى أهمية بنية هامة في دماغنا الانفعالي emotional brain هـــي اللـــوزة amygdala في ربـــط الإثارة الانفعالية emotional arousal بالاستجابات الفيزيولوجية المصاحبة. ففي دراسة Murray وزملائه على ثمانية أطفال (5 من الذكور و3 من الإناث) تتراوح أعمـــارهم مـــا بين 8 – 13 سنة، تم تعريضهم لمشاهد عنيفة من فيلم Rocky، مقارنة بمشاهد طبيعية وقياس نشاط أدمغتهم بتقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي FMRI حيث تم التأكد من أن مشاهد العنف تؤدي إلى اســـتعمال اللوزة، وحصان البحرHippocampus، وبعض أجزاء الفص الجبهي وكذا نصف الدماغ الأيمن، وهـــي مكونـــات تدخل ضمن مخنا الانفعالي، تثار في مواقف إدراك الخطر والتحدي، كما تم تشغيل الذاكرة طويلـــة المدى LTM للحوادث المخيفة (Murry 2001).وتعتبر دراسة Williams(1986) سباقة في الإشارة إلى ارتباط السلوك العدواني لدى الأطفال بالمشاهدة التلفزيونية (جميل عطية، 2000).

وشملت الدراسة ثلاث مدن كندية كالآتي:

1- مدينة ظلت تستقبل إرسال قناة تلفزيونية واحدة لمدة سبع سنوات Unitel.

ب- مدينة كانت تستقبل إرسال محطات تلفزيونية لمدة خمس عشرة سنة هي: Multitel

2- مدينة لم يسبق أن وجد بها إرسال تلفزيوني وكانت على وشك استلامه سميت Notel.

وتمت دراسة سلوك الأطفال في المدارس الابتدائية في المدن الثلاث قبل الإرسال التلفزيوني إلى مدينة Notel ثم عـــامين بعـــد إدخال التلفزيون لهذه المدينة ودلت نتائج الدراسة على أن أطفال مدينة Multitel كانوا أكثر

عدوانـــية في جميع مراحل الدراسة وأن أطفال Notel أقلا عدوانية لكن هذا السلوك بدأ في الظهور بعد عامين من استقبال الإرسال.

ويـــرى علم النفس المعرفي أننا نتعلم العنف المشاهد من خلال تخزين صور نمطية Scripts في ذاكرتنا تدعى الصـــور النمطية الموقفية Situational Scripts وهي صور نمطية لمجموعة من أداءات الفرد في موقف اجتماعي معـــين كما أن هناك صورا نمطية أدائية Instrumental Scripts تتعلق بطريقة أدائنا لعملنا، مثل طريقة تشغيل الحاســـوب أو سياقة الدراجة لدى الأطفال، ويكتسب الأطفال خاصة كثيرا من هذه الصور من مشاهداتهم في المـــراحل المـــبكرة من أعمارهم من خلال التعلم بالملاحظة وتستدعي هذه الصور النمطية للسلوك في مواقف واقعـــية وقـــد تتداخل مع أحلام اليقظة والخيال اللامحدود للطفل فيصعب عليه التفريق بين مشاهده وما يجب تطبيقه في الواقع (جميل عطية، 2000) غير أن هناك عوامل بيئية ونفسية شخصية واجتماعية تربوية كثيرة تتداخل في سلوك العدوان إضافة إلى أثر المشاهدة التلفزيونية.

8- الوجه الأخر لتجربة المشاهدة لدى الطفل:

تشـــير بعـــض الأبحـــاث (Howard 1993، Hawkins 1977، Feshbach 1972) إلى أن الدراسات التي تناولناها سابقا والتي تركز على الجانب السلبي لتجربة المشاهدة يمكن انتقادها من الناحية المنهجية لثلاثة أسباب على الأقل:

1- اعتبارها أن الطفل كائن مستقل سلبي يتأثر ولا يؤثر خلال المشاهدة.

2- إغفالهـــا لكـــثير مـــن المتغيرات المتشابكة في تجربة المشاهدة التلفزيونية كما بيناها في المخطط الخاص بالعوامل المتداخلة في مشاهدة التلفزيون.

3- إهمالها الآثار الإيجابية لوسائل الإعلام خاصة في العملية التعليمية والتربوية وكذا في التنشئة الاجتماعية، وتفعيل خيال الطفل وإبداعه وكذا البرامج التربوية الناجحة التي هدفت إلى استغلال الوسائل السمعية البصرية أو التفاعلية لدعم المهارات المعرفية.

4- إغفالها لدراسات كثيرة لم يجد أصحابها فرقا دالا بين الأطفال المشاهدين وغيرهم في المهارات المعرفية، بـــل تفـــوق الأطفال المشاهدون لبرامج تلفزيونية تعليمية على أقرانهم من غير المشاهدين مثل دراسات Gupta وزمـــلاؤه (2001) الـــتي أشارت إلى أن المتغيرات البيئية تؤثر على سلوك الطفل أكثر من مشاهدته للتلفزيون ودراســـة Fosarelli (1984)، وكـــذا دراســـات Caviedes (2000) التي أشارت إلى أهمية سلوك الأبوين واتجاهاتهم نحو مشاهدة أطفالهم.

5- أغلب تلك الدراسات حسب Nikken 1977 , Peetnes 1988 استعملت استمارات أو مقاييس اتجاهات وهي أدوات منهجية محدودة النفع مع الأطفـــال خاصة إذا تكونت من أسئلة مغلقة (1987Klapper)، ويمكننا توجيه ذات النقد لأسلوب المقابلة مع الأطفال خاصة في مرحلة تفسير النتائج (Chandler، 1997).

لذلـــك كلـــه ورغـــم مرور ثلاثة عقود على الأقل منذ شيوع التلفزيون، إلا أننا في مزيد من الحاجة إلى دراســـات مضـــبوطة منهجيا، ومتوافقة مع أساليب التعامل مع الطفل عبر مراحل النمو، إضافة إلى أخذها في الحسبان العامل الثقافي والاجتماعي كمتغير أساسي خاصة في بيئتنا العربية والإسلامية.

9- استراتيجيات التعامل مع تجربة المشاهدة لدى الطفل:

إن مـــراجعة سريعة للدراسات المعارضة والمؤيدة لأثار التلفزيون على الطفل، خاصة على نموه المعرفي تجعلنا أميل إلى اعتبارها عملية تحمل مخاطر كامنة للأسباب التالية:

1- إن الطفل البشري كائن نام حساس، قابل للتأثر خلال سنوات العمر الأولى ولا يمكنه حماية نفسه مما يجعله عرضة لمثيرات بيئية غير متكيفة مع مراحل نموه وبالتالي إعاقتها أو تشويهها.

2- إن المشـــاهدة التلفزيونـــية في عصر الغزو الرقمي لم تعد تفرق بين الطفل والراشد، وأصبح استغلال الراشـــدين لهذه الوسيلة سواء لدوافع سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ترفيهية أو حتى موفقية عارضة يشكل قضية أخلاقية جديرة بالتوقف عندها.

3- إن دراســـة الآثـــار النفسية والجسدية والسلوكية الاجتماعية والمعرفية للغزو الرقمي على الطفل باتت تؤرق المكلفين برعاية الطفل على اختلاف تخصصاتهم وإذا كان اقتصارنا على الآثار المعرفية في هذا المقال سببه التقـــيد المنهجي نظرا لقلة الاهتمام بهذه الآثار، فإن الاضطرابات المصاحبة للمشاهدة تدعوا إلى الحذر من ترك الطفل فترات طويلة أمام الشاشة إلى حد الإدمان وحرمانه من التفاعل الاجتماعي المبكر(Cordellan 1990).

تـــرى جمعـــية طب الأطفال الأمريكية AAP وجمعية علم النفس الأمريكية APA وكذا بعض الأكاديميين العرب(جميل عطية وأديب عقل) انه للاستفادة من المشاهدة وتقليل آثارها السلبية، لا بد

من إتباع استراتيجيات سلوكية من طرف الأولياء أو المربين وأهمها هي:

1- وضـــع حـــدود للمشاهدة حيث لا يسمح للطفل بأكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم، وكلما كان الطفـــل صغيرا كلما كان المنع أشد أما الأطفال دون سن الثانية من العمر فيستحسن أبعادهم عنه لأطول فترة ممكنة.

2- الحد من أثر التلفزيون في البيت:

- لا يشغل أثناء تناول الأسرة للكل.
- إعطاء الحوار بين أفراد الأسرة الأولية بدل الجملة الشهيرة:" اسكت دعنا نستمع".
- عدم التركيز على غرفة التلفزيون كمحور الحياة الأسرية.
- إبعاد التلفزيون عن غرفة نوم الأطفال.

4 استبدال التلفزيون بوسائل أخرى مثل:

- الفيديو
- الحاسوب

- تشفير بعض المحطات.

5- التخطيط لعملية المشاهدة:

- مراقبة البرامج التي يشاهدها الطفل، ومساعدته بإرشاده وتوجيهه إلى البرامج المفيدة .

- الاستفادة من المحطات غير التجارية الخاصة بالأطفال.

6- عـــدم استعمال مشاهدة التلفزيون كوسيلة للثواب والعقاب لأن ذلك يزيد من أهمية هذه الوسيلة في إدراك الطفل فيتعلق به.

7- عدم ترك الأطفال لوحدهم أمام الشاشة ومشاهدة الأولياء للتلفزيون مع أبنائهم واستغلال موضوعات معيـــنة (العمـــل، الحـــب العائلة، الأخلاق، الرياضة) لبناء حوار مفيد معهم ومساعدتهم في انتقاد ما يرونه والسؤال حوله.

8- تقـــديم البدائل للطفل مثل الرياضية، الرحلات، الهوايات المختلفة، واستغلال دور العبادة مثل المسجد في أوقات الفراغ .

9- مقاومـــة ضغوط الإعلانات التجارية وتنبيه الطفل حسب قدراته المعرفية إلى أن الهدف منها هو الربح ولو على حساب صحته ونقوده وأن الانقيـــاد الأعمى لها قد يؤدي إلى أمراض جسدية واجتماعية.

10- مراقـــبة ســـلوك الطفل وأدائه المعرفي كما يظهر خاصة في المخرجات التعليمية والتربوية قبل فوات الأوان، حيث أن غياب الأولياء والمكلفين برعاية الطفل يملؤه أب ثالث أو أم ثالثة هي التلفزيون.

11- تقـــديم القدوة الحسنة للطفل في التعامل مع التلفزيون، ومراقبة سلوك الراشدين، حيث لا يعقل أن ننهاه عن سلوك نمارسه يوميا وبإفراط.

إن استراتيجيات مقاومة تأثير الكم المتدفق من الصورة والصوت والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى إربـــاك الآلـــيات العصبية ووظائف الدماغ لدى الراشدين، فكيف به لدى عضوية في طريق النمو مثل الطفل البشري، تعد ذات أهمية قصوى في الوقت الحاضر.

الخلاصة:

يتضـــح مـــن استعراض الدراسات السابقة التأثير السلبي للمشاهدة التلفزيونية المفرطة في المجال المعرفي خصوصـــا مما يدعونا إلى تقنين هذه التجربة بما يعود بالنفع على الطفل لأنه يستحيل عمليا منعه كليا عن أهم وســـيلة إعلامـــية في حياتـــنا المعاصرة. كما قد يؤدي هذا الحرمان إلى عدم الاستفادة من الاستغلال الذكي للوســـائل الســـمعية البصرية في تفتيق ملكاته الذهنية وتوافقه مع عالمه الرقمي في القرن الواحد والعشرين. لذا تـــبدو اســـتراتيجيات الـــتعامل مع التلفزيون في مراحل الطفولة الباكرة ذات اهمية في الحد من آثاره السلبية. وتدعونا إلى دراسة أعمق تخص بيئتنا العربية في ظل عولمة معلوماتية لا ترحم كبيرا ولا صغيرا.

المراجـــع

I- العربية:

1- جميل عطية عز الدين (2000)، **التلفزيون والصحة النفسية للطفل**، عالم الكتب، القاهرة.

2- انشـــراح الشـــال (1987)، **علاقـــة الطفـــل بالوسائل المطبوعة والالكترونية**، دار الفكر العربي، القاهرة،.

3- يوسف القطامي(2000)، **نمو الطفل المعرفي واللغوي**، الأهلية، عمان.

4- أديب عقل (2004)، **التلفزيون وتحديات التنشئة الاجتماعية**، مجلة النبأ، عدد 64.

5- ماري وين(1999)، **الأطفال والإدمان التلفزيوني**، عالم المعرفة، الكويت.

6- نصر الدين لعياضي (1998)، **التلفزيون دراسات وتجارب**، دار هومة، الجزائر.

II- المراجع الأجنبية.

7- Michel Habib (1993)، Bases neurologiques des comportements .Masson Paris.

8- National Research Council Institute of Medicine (2003) From neurons to neighborhoods: the science of early child hood development. NAP press, Washington D.C.

9- National Research Council (2001): How People Learn: Brain, Mind, Experience and School, NAP, Washington D.C.

10- Corellan .W. (1990), Television and Children towards the Millennium , Communication Research Trends vol. 10. N° 3.

11- Susan R.J., (1999) , Strangers in our homes : and our children's mind Senior Project . Waldorf School.

12- Robert،K ., Mihaly ,C .,(2002) Television addiction is no Mere Metaphor , *scien . Am.* (on line) at : http :// www.sciam.com /2002/0202/issue .kuber .html

13- Catherine D.N., et Kristin D.L., (1993) Cognitive development influences on children's understanding of television, In *Children and Television*, Gordon L., pp.23-37.

14- Sylwester. R.,(1998) The effects of electronic media on a developing Brain . Media Literacy Online Project .univ. Oregon. Eugene.

15- Noël Jason, (2003) Effect of media on early brain development, (online) at http: // www.leoonline.com doi /abs/10/.1207 html .visité le 5.11.2004 .

16- Robinson T.N، et al (1998). Television and music video exposure and risk of adolescent alcohol use .*Pediatrics* .NO; 102(5). E54.

17- Liebert .R.M (1986) . Effects of television and adolescents, *J. Dev. Behav. Pediatr.* feb ; 7 (1) : 43-8.

18- Fosarelli P.D. (1984) Television and children: a review , *J. Dev. Behav. Pediatr.* feb 5 (1) : 30-7 .

19- Gupta V.B.; Nwosa N.M.,(2001) Externalizing behaviors and television viewing in children of low income minority parents. *Clin.Pediatr* .jul. 40(6) :337-41.

20- Owens J.; Maxim R., (1999) Television viewing habits and sleep disturbance in school children. *Pediatrics*. sep 104 (3) .e.27.

21- Zuckerman D. M, Zuckerman B. S. (1985) ,Television's impact on children, feb 75; 75 (2) 233-40.

22- Certain L.K, Kahir R.S. (2002) Prevalence, Correlates, and trajectory of television viewing among children and toddlers, ap. (109)4. 634-42.

23- Murray J. P، (2001) TV violence and brain mapping in children, *psychiatric times*, vol. XVIII, issue 10.

24- Canadian Pediatric Society, (2003) Impact of media use on children and youth, *Pediatr.Child Heath.*, Vol.8. N° 5, May/June. 301-306.

25- Schiwindt D., (1996) Television and children: literature review,(on line)at: http:// www. fortunecity.com/ meltingpot/ Kaminura/ 130/ thesis/ lirert.html. visité le : 27/9/2004.

26- Healy. Y.M, (1998) Understanding TV's effects on the de developing brain, AAP News, May, p 1-2.

27- Chaudler D., (1997) Children's understanding of what is "real" on television: a review of the literature, *Journal of Educational Media*, vol. 23 (1), pp 65-80.

28- Alexander K.C.L., (1994) Children and television. American Family Physician, retrieved oct. 2004 at : findarticals.com.

29- Huston A.C., (1992) Family and environmental antecedents of intellectual ability in early childhood, Rosen Symposium on The Psycholology and Development of gifted Children, Lawrence K.S.

30- Farell, Y. H.,Grean F.L., (1990) Do young Children think of television images as pictures or real objects?, *Journal of Broadcasting and electronic Media* 34. pp. 399-419.

31- Huston A., Wright J., (1983) Children's processing of television: The informative functions of formal features. In J.Briant (eds), Children's understanding of television: Research, attention and comprehension, New York, Academic Press. Pp. 35-68.